مفتاح شخصية أبي بكر

العقاد ومفتاح الشخصية

كتب العقاد سلسلة كتب العبقريات منها : محمد ﷺ ، وعمر ، والصدِّيق ، والإمام ... ومن من أهم ما يميز عبقريات العقاد حديثة عن " مفتاح الشخصية " التي يقول عنها : "إن مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تنفتح لنا أبوبها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابهة والأعراض ، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق ! .. والذي نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها : نريد به السمة التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع ؛ فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحث عن " مفتاح الشخصية " لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة العبقري وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء . " [١]

وكتب العقاد عبقرية الصديق سنة ١٩٥١ وعن مفتاح شخصية الصدِّيق يقول : " كان أبو بكر رجلاً عصبي المزاج دقيق البنية ، خفيف اللحم صغير التركيب .

تركيب يغلب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام النحيزة (الطبيعة) فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالأبطال.

(١) عباس محمود العقاد " عبقرية عمر " منشورات الكتب العصرية بيروت ص ٦٦ ، ٦٧ بتصرف.

وإن كانوا من لئام النحيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ... ولقد كان أبو بكر رجلاً كريماً أليفاً من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متأصلاً فيه ، مقروناً بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا جرم كان هذا الإعجاب " مفتاحاً لشخصيته " مفسراً لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزاً لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات ." (١)

وأبو بكر ليس عصبي المزاج كما وصفه العقاد ، وليس مفتوناً بالعظمة إنما كان ممن صَفَت فطرتهم فرقَّت قلوبهم وزكت نفوسهم وكملت بصيرتهم وفطنتهم ، فلما بعث النبي ﷺ ودعاه للإيمان بدين الله دين الفطرة الصافية النقية سارع إلى الإيمان ولم يتردَّد فقد صادفت فطرة الدين فطرته ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] وصار أبو بكر عبداً ربانياً يرى بنور الله ومن أهل ولايته ورعايته ومحط رحمته وهذا أقصى ما يتمناه المؤمن .

وأبو بكر ليس فقط من أحباء الله ومن أهل الله ومن أولياء الله بل الوحيد من أمة محمد ﷺ – فيما نعلم – الذي أنعم الله تعالى عليه بمرتبة الصدّيقية أعلى المراتب بعد النبوة !!

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]

فالأنبياء أولاً ثم الصدِّيقون، فالصديقيَّة مرتبة عظيمة بين النبوة والشهادة.

---

(١) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ بتصرف.

ومن القلائل في تاريخ المؤمنين الذي منَّ الله تعالى عليه بهذه المرتبة – من غير الأنبياء – السيدة مريم ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:٧٥]

صفات أبي بكر التي أبلغته منزلة الصديقية

ولقد بلغ الصدِّيق الأعظم أبو بكر ، الدرجة العليا في الصديقية؛ لنقاء فطرته وكمال بصيرته وموافقة هواه وميوله شرع الله فكان لا يبلغه عن النبي ﷺ شيء إلا ويقول : " لئن كان قال ذلك لقد صدق " قبل أن يسمعه منه ﷺ ولا يأمر النبي ﷺ إلا وهو ممتثل بل أول الممتثلين.

والصدق درجات ، والصادقون مراتب ؛ فالصدق في اليسر غيره فالعسر، والصدق في أوقات المحن والفتن غيره في أوقات الرخاء والأمن ، والصدق في القول غير الصدق في القول والعمل ، والصادقون مراتب : فالصدوق أكثر صدقاً من الصادق ، أما الصدِّيق فأعلى مراتب الصدق والصادقين ؛ فهو صدق في اليسر والعسر وفي الأمن وعند الفتن وفي القول والعمل وفي كل وقت وحين لذا لا عجب أن تلي مرتبة الصديقية درجة النبوة مباشرة وتفوق درجة الشهادة ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩]

وتلقيب أبي بكر بالصديق أمر ثابت مجمع عليه لا شك فيه، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك . أنَّ النَّبيَّ ﷺ صعِدَ أحدًا ، فتبعَهُ أبو بَكْرٍ ، وعمرُ ، وعثمانُ فرَجفَ بِهِم فضربَهُ نبيُّ اللَّهِ ﷺ برجلِهِ : اثبُتْ أُحُدُ فإنَّما عَلَيكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشَهيدانِ " [البخاري]

ففي هذا الحديث وصف من النبي ﷺ لأبي بكر بالصديقية.

قال النووي : " وأجمعت الأئمة على تسميته صديقًا. قال على بن أبي طالب : إن الله تعالى هو الذي سمَّى أبا بكر على لسان رسول الله ﷺ

صديقًا، وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ ولازم الصدق، فلم يقع منه هناة ولا وقفة في حال من الأحوال " .

والسيدة عائشة تحدِّد متى لُقِّب أبو بكر بهذا اللقب العظيم فتذكر إنه لُقِّب به صباح ليلة الإسراء أي في العام الأول أو الثاني قبل الهجرة وقت محنة المسلمين وشدة ابتلاءهم .

عن السيدة عائشة قالت : " لما أُسرِيَ بالنبيِّ ﷺ إلى المسجدِ الأقْصى، أصبح يتحدَّثُ الناسُ بذلك ، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به ، وصدَّقوه ، وسَعَوْا بذلك إلى أبي بكرٍ ، فقالوا : هل لك إلى صاحبِك يزعم أنه أُسرِيَ به الليلةَ إلى بيتِ المقدسِ ؟ قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئنْ كَانَ قَالَ ذَلكَ لَقَدْ صدَقَ ، قَالوا : أو تُصَدِّقُه أنه ذَهَبَ الليلةَ إلى بيتِ المَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصبِحَ ؟ قَالَ : نَعَمْ إني لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلكَ ، أُصَدِّقُه بِخَبَرِ السَّمَاءِ في غُدُوِّه أو رَوْحِه ، فَلِذَلِكَ سُمِّي أَبُو بَكْر الصِّديقَ " [صححه الألباني]

صدَّق أبو بكر خبر إسراء النبي ﷺ في وقت محنة وبلاء وفي أمر لا تكاد تدركه عقول البشر بل لم يكتف بذلك إنما ساق الدليل القطعي على صدق الإيمان وهو أنه يصدِّق برسالة النبي ﷺ وبوحي الله تعالى إليه.

الفرق بين أبي بكر وعمر

كان لأبي بكر وعمر وضع خاص في تاريخ الإسلام والمسلمين لم يبلغه غيرهما ، ولكن تُرى ما الفرق بين هذين العظيمين .

إن لهذين العظيمين مزّية خاصة عن بقية الصحابة، حتى الصحابة أنفسهم كانوا يدركون ذلك، قال علي بن أبي طالب : لأني كثيراً ما

كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول : كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال " بَيْنَما رَجُلٌ رَاكِبٌ على بَقَرَة التَفَتَتْ إلَيْهِ فَقالَتْ إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذا إنَّما خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ فإنِّي أُؤمِنُ بِهَذَا أنا وأبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وبَيْنَما رَجُلٌ في غَنَمِهِ إذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْها بِشاةٍ فَطَلَبَهُ حَتَّى اسْتَنْقَذَها مِنْهُ فَقالَ لَهُ الذِّئْبُ هُنا اسْتَنْقَذْتَها مِنِّي فَمَنْ لَها يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لا رَاعِيَ لَها غَيْرِي فإنِّي أُؤمِنُ بِهَذَا أنا وأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ "
[صحيح ابن حبان]

هو محمول على أنه ﷺ كان أخبرهما بذلك فصدَّقاه أو أطلق ذلك لما اطلَّع عليه من أنهما يصدقان بذلك إذا سمعاه ولا يترددان فيه .

والنبي ﷺ في هذا الحديث يستشهد بأبي بكر وعمر على الإيمان بخوارق الأمور التي لا يكاد يصدقها عقل .

ولقد تفرَّد أبو بكر وعمر بهذه الفضيلة ولم يشاركهما أحد فيها .

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَبٍ قال : " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ هَذَانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ " [صححه الألباني]

قال ابن القيم : " والتحقيق أن صفة البصر للصديق وصفة السمع للفاروق، ويظهر لك هذا من كون عمر محدَّثاً فعَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ " [صحيح مسلم] والتحديث المذكور هو ما يُلْقَى في القلب من الصواب والحق، وهذا طريقه السمع الباطن، وهو بمنزلة التحديث والإخبار في الأذن.

وأمّا الصدّيق فهو الذي كمّل مقام الصديقية لكمال بصيرته حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر به الرسول ﷺ ما باشر قلبه، فلم يبق بينه

وبين إدراك البصر إلاّ حجاب الغيب، فهو كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره ، وهذا لكمال البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد وأعظم كراماته التي يكرم بها وليس بعد درجة النبوة إلا هي ولهذا جعلها سبحانه بعدها فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] وهذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثرة صوم ولا بكثرة صلاة . " (١)

درجات اليقين

وكلام ابن القيم كلام نفيس ، ودرجة الصديقية تعني وصول العبد إلى أعلى درجات اليقين وهو حق اليقين يقول ابن القيم : " مراتب اليقين وهي ثلاثة : حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين كما قال تعالى :

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ﴾[التكاثر : ٥- ٧] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها هو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلاً وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين فهذه مرتبة العلم كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المُخْبِر .

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع وعين اليقين للبصر وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً " ليس الخبر كالمعاين " وهذه المرتبة هي التي سألها

(١) ابن قيم جوزية " بدائع الفوائد " ج ١ ص ٨٠ .

إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال : " نحن أحق بالشك من إبراهيم " ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم وإنما هو عين بعد علم وشهود بعد خبر ومعاينة بعد سماع .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين وهي مباشرة الشيء بالإحساس به كما إذا أدخلوا الجنة وتمتَّعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين وفي الموقف حين نزلف ونقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب فلهذا قال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِين﴾ فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلَّق بها فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثلاً فقال : إذ قال لك من تجزم بصدقه : عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين" (١)

فحق اليقين فيه يباشر القلب ما يؤمن به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي بلغها أبو بكر وفاق بها عمر وغيره .

(١) ابن قيم الجوزية " التبيان في أقسام القرآن " ص ١١١ .

الفرق بين منزلة الصديقية والتحديث

ومتى استقر حق اليقين أو درجة الصديقية في القلب يُسَخِّر الجوارح كلها للانقياد لهذا اليقين حتى العقل لم يعد يناقش الأمر أو حتى يبحث في الحكمة من ورائه إنما صار العقل كالقلب يؤمن ويسلِّم ، أما درجة التحديث فهي أقل من هذه الدرجة فالمحدَّث عنده علم يقين أو عين يقين فهو مع إقراره التام بصدق ما جاء في الكتاب والسنة فإنه يُعْمِل فيه العقل ويتدبره ويعرف الحكمة منه ويبحث عن الوسيلة المناسبة لتنفيذه ، فالصدِّيق يسارع بتنفيذ الأمر الإلهي بما شرح الله صدره له ، أما المحدَّث فيتدبَّر ثم ينفذ ، والأول يلهمه الله الحق عن طريق القلب والثاني يلهمه الحق عن طريق العقل والإسلام يحتاج إلى الصدِّيق والمحدَّث . فهو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد .

الصدّيق والسلفية الحرفية

ولا يعني هذا أن الصديقية تعني التمسك الحرفي بنصوص الدين كما يفعل بعض السلفية فأبو بكر مثلاً كان يسترخي إزاره أسفل الكعبين مع كثرة النصوص التي تحرِّم ذلك ، لأنه يعلم بصدق يقينه أن المقصود بالتحريم ما كان على سبيل الخيلاء ومع ذلك عرض الأمر على النبي ﷺ قَالَ ﷺ : " مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلَاءَ " [متفق عليه]

يقول ابن بطال : " وفى حديث أبى بكر بيان أن سقط ثوبه بغير قصده وفعله ولم يقصد بذلك الخيلاء فإنه لا حرج عليه في ذلك ، لقوله ﷺ لأبى بكر : " لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلَاءَ " ألا ترى أن النبي ﷺ جر

ثوبه حين استعجل المسير إلى صلاة الخسوف ، وهو مبين لأمته بقوله وفعله " (١)

أمثلة على الفرق بين الصديقية والتحديث

ويتضح الفرق بين درجتي الصديقية والتحديث في إسلام كل من أبي بكر وعمر ، فأبو بكر خالط الإيمان قلبه من أول لحظة دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فلم يتردد ولم يناقش ولم يجادل ولم يتروَّ ، ولم يفكر في عواقب إيمانه على نفسه أو على أهله ، بخلاف عمر بن الخطاب الذي لم يؤمن إلا بعد تدبُّر وتحقُّق واقتناع بل بعد إنكار وعداء للدين يقول النبي ﷺ : " مَا أَحَدٌ عَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ ؛ إِلَّا كَانَتْ لَهُ كَبْوَةٌ ؛ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَعْثَمْ "

وَالْكَبْوَةُ : أَنْ يَقِفَ سَاعَةً حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ ، وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا قَالَ لَهُ ﷺ : " إِنِّي نَبِيٌّ " ؛ قَالَ لَهُ : صَدَقْتَ ؛ مُجَاوَبَةً لِقَوْلِهِ ، وَلَمْ يَقِفْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَهُوَ قَوْلُهُ : " لَمْ يَتَلَعْثَمْ " ؛ أَيْ لَمْ يَقِفْ " .

ويظهر ذلك أيضاً في موقف أبي بكر وعمر من دعوة النبي ﷺ للتصدُّق فجاء أبو بكر سريعاً بكلِّ ماله ولم يفكِّر في أمر أهله ماذا يبقي لهم فهو على يقين جازم أن الله لن يضيعهم ، ولم يفكِّر في إنه يفعل ذلك منافسة لغيره من المؤمنين في الخير إنما فعله بمقتضى صديقيته ، أما عمر فتدبَّر الأمر أولاً ، وذكر أبا بكر وفكَّر في منافسته وأن ظروفه مواتيه فلديه مال وفير ، ثم قرَّر أن يقسِّم ماله نصفين نصف لله ونصف لأهله وهو على يقين أنه سيسبق أبا بكر هذه المرة .

عن عمر بن الخطاب قال: " أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ فَجِئْتُ

(١) ابن بطال " شرح صحيح البخاري " ج ٩ ص ٧٨ .

بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قُلْتُ مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا " [صحيح أبي داود]

قال ابن تيمية معلِّقاً على هذا الحديث: فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق أفضل منه، وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره .

وفي صلح الحديبية " قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوَّفٌ بِهِ قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوَّفٌ بِهِ " [متفق عليه]

أرأيت كيف سلَّم أبو بكر بما فعل النبي ﷺ ولم يناقش ولم يجادل ولم يراجع النبي ﷺ بينما عمر ناقش وجادل وسأل وراجع .

وفي حروب الردة يظهر الفرق بين الصديقية والتحديث جليّاً فأبو بكر نظر إلى وجوب اتباع المسلمين تعاليم الإسلام كما كانوا على عهد الرسول ﷺ حتى ولو اضطر إلى قتالهم ليستقيم أمر الدين ولو ضحَّى بنفسه في سبيل ذلك ، أما عمر تدبَّر الأمر ورأى عدم مقاتلة المسلمين خاصة أن عددهم كبير ، ولا قِبَل للمؤمنين بقتالهم .

قال أبو بكر : " والله! لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه " فيقف عمر أمامه : يا أبا بكر أتقاتل قوماً يشهدون أن لا إله الله، وقد قال ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؟! " فقال أبو بكر : " يا عمر أجبَّار في الجاهلية خوار في الإسلام؟! ألم يقل رسول الله ﷺ : " إلا بحقها؟ " إن الزكاة من حقها، والله! لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة، فشرح الله صدر عمر إلى ما ذهب إليه أبو بكر ".

سلَّم أبو بكر وأخذ القرار أما عمر فناقش وجادل حتى اقتنع ثم وافق وأيَّد .

فتحرك جيش الصديق، لقتال المرتدين، فاهتزت جزيرة العرب لهذا الحادث الجلل، فكاد أن ينفرط عقد الإسلام، فثبته الله جل وتعالى بالصدِّيق وعاد إلى دائرة الإسلام من كان قد خرج منه بفضل الله، ثم بهذه الوقفة الصديقية في وجه تيار الردة، الذي أوشك أن تعم بلواه أطراف الجزيرة، وربما كانت ستأخذ صوراً أخرى غير صورة منع دفع الزكاة.

أبو بكر عندما يرى الأمر الإلهي يسارع بتنفيذه فوراً دون توان بل دون تدبر لعواقب الأمر .. توكل مطلق في أن الله لن يخزيه أبداً .

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ".

فهذا يوم واحد في حياة الصدّيق، أصبح صائماً وتبع جنازة مسلم حتى دفنت وأطعم أحد فقراء المسلمين وزار أخاً له كان مريضاً، كل هذه الأعمال يعملها في يوم واحد وغيرها .

الرد على العقاد

نعود إلى بعض الشواهد التي استدلَّ بها العقاد على حدة مزاج أبي بكر الصديق .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : " كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا: لا. فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا " [صحيح البخاري]

وأبو بكر غير معصوم ارتكب خطأ يسيراً في حق عمر بن الخطاب، ولكنه لم يصر عليه وسارع بالندم والاعتذار ، ولكن عمر لم يقبل عذره فسارع أبو بكر إلى النبي ﷺ يجري وقد شمَّر ثيابه حتى لا تعوقه عن الجري حتى بدت ركبته ، ولم يذهب إلى النبي ﷺ لينصره على عمر أو حتى ليحكم بينه وبين عمر إنما ليعترف له بخطئه وندمه ويرجوه أن يتوسَّط بينه وبين عمر ليقبل عذره لأنه لا يطيق صبراً على خطأ يسير ارتكبه ، وعندما أحس أبو بكر إشفاق النبي ﷺ عليه وحزنه لحاله جثا على ركبته وراح يؤكد للنبي ﷺ إنه هو المخطئ بل يصف نفسه بأنه ظلم عمر مرتين كل هذا حتى يزيل إشفاق النبي ﷺ عليه وتأثره بحاله ، أهذا رجل عصبي المزاج كما وصفه العقاد أم أنه رجل رقيق القلب

طاهر النفس شديد الحب للحق ولله ورسوله ، لا يرضى أن يغضب منه أحد ويفعل كل ما في وسعه ليسترضيه .

وأنه رجل عظيم في نفسه وليس مفتونا بالعظمة في غيره ؛ لذا استحقَّ كلام النبي ﷺ عنه وإظهاره لقدره ومكانته في الإسلام التي لم يبلغها غيره .

الموقف الثاني الذي يستشهد به العقاد على حدة مزاج أبي بكر .

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ ، قَالَ : أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْضًا وَأَعْطَى أَبَا بَكْرٍ أَرْضًا ، قَالَ : " فَاخْتَلَفْنَا فِي عِذْقٍ يَعْنِي نَخْلَةً ، فَقُلْتُ : إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَرْضِي ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هِيَ مِنْ أَرْضِي فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَمَا تَرَى انْظُرُ ، أَمَا تَرَى أَنَّهَا مِنْ أَرْضِي فَأَبَى ، وَقَالَ كَلِمَةً نَدِمَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ لِي : يَا رَبِيعَةُ ، قُلْ لِي مِثْلَ مَا قُلْتُ لَكَ حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا ، قَالَ : قُلْتُ : لاَ ... فَانْطَلَقْتُ وَقَدْ سَبَقَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَصَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَ لِي : يَا رَبِيعَةُ ، مَالَكَ وَالصِّدِّيقِ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ لِي شَيْئًا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لِي مِثْلَ مَا قُلْتُ لَكَ حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا ، فَقُلْتُ : لاَ أَقُولُ لَكَ مِثْلَ مَا قُلْتَ لِي ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَجَلْ قَالَ : فَلاَ تَقُلْ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لَكَ وَلَكِنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ ، وَهُوَ يَبْكِي"

ترى لماذا بكى أبو بكر ؟!

إنه بكى من شدة حب النبي ﷺ له وعدم سماحه بالقصاص منه .. بكى أبو بكر ندماً على ما فعل وتمنَّى ألا يكون قد ارتكب هذا الخطأ وألا يقف هذا الموقف المحرج أمام أحب الناس إليه ﷺ ، ولولا شدة حبه للحق ورغبته في التكفير عن الخطأ الذي ارتكبه في حق ربيعة ،

ورفض ربيعة أن يقتص منه مما اضطر أبو بكر إلى الذهاب إلى النبي ﷺ لكي يطهره من خطئه في حينه ، وربما لو كان أبو بكر صبر يوماً أو بعض يوم حتى هدأت ثورة ربيعه واعتذر له لقبل عذره لكن الصدِّيق لم ينتظر لحظة على خطأ دون قصاص مع أن الأمر يسير لا يستحق هذا لكنه الصدِّيق .

قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث ربيعة: وفي الحديث من الفوائد: فضل أبي بكر على جميع الصحابة، وأن الفاضل لا ينبغي له أن يغاضب من هو أفضل منه، وفيه ما طبع عليه الإنسان من البشرية حتى يحمله الغضب على ارتكاب خلاف الأولى، لكن الفاضل في الدين يسرع الرجوع إلى الأولى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] وفيه أن غير النبي ﷺ ولو بلغ من الفضل الغاية ليس بمعصوم ."

ويستدرك العقاد على رأيه في حِدَّة أبي بكر فيقول : " وهكذا نعلم أين تبدر الحدَّة ، وأين تبدر الصرامة من خَلِيقَة أبي بكر المسالم والوديع ، فحيثما روى راوٍ أنه احتدَّ أو اشتدَّ فلنعلم عن يقين أن في الأمر شيئاً يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي الحدَّة أو الشدَّة يومئذ في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومَرُن عليها" (١)

وذكر العقاد أن سبب إيمان أبي بكر بالنبي إعجاب بعظمته الشخصية : " فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يثق به ، ثم يرتقي بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها " (٢)

والنبي ﷺ مع كمال خَلْقِه وخُلُقه لم يكن معروفاً بالبطولة ولا العظمة في قريش تلك العظمة التي تتمثل في عرفهم أول ما تتمثل في كثرة

(١) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢١٩.
(٢) نفسه ص ٢٧١.

المال والجاه والسلطان وفي الحسب والنسب ، ولم يروا محمداً ﷺ أهلاً لهذه العظمة مثل : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة أو أبو سفيان بن حرب أو عمرو بن هشام من أهل مكة أو حبيب بن عمرو بن عمير أو ابن عبد ياليل أو عروة بن مسعود من أهل الطائف ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخرف:٣١]

فلم يكن النبي ﷺ عظيماً بعرفهم فلو كان أبو بكر من المفتونين بعظماء قومه كان قد فتن بهؤلاء أو غيرهم من أساطين الكفر والطغيان في مكة والطائف ، ولم يفتن باليتيم الفقير ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضُّحى: ٦-٨] .

ويؤكد العقاد هذا المعنى فيقول : " فكان الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع : رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء ، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم " (١)

وفي كلام العقاد نظر فالثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش أولهم الحاسدون للنبي ولقبيلته على ما أتاهم الله من فضله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]

(١) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢٧٤.

فالثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش ومن أهل الكتاب كان بسبب الحسد لصاحب الرسالة لذا جحدوا الدين رغم يقينهم بصدق صاحبها ودعوته ولذا يقول الله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]

وقد لقي النبي ﷺ أبا جهل فصافحه فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابئ فقال : والله إني لأعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً "

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩]

ويستدرك العقاد على وصفه أبا بكر بأنه معجب بالبطولة ، ومؤمن بالأبطال فيقول : " إنما البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الإنسانية : هي بطولة الحق، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهي بعد هذا ، وفوق كل هذا ، بطولة الفداء – يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء .تلك هي بطولة محمد ." (١)

ثم يقترب العقاد مما ذهبنا إليه في مفتاح شخصية أبي بكر فيقول : " ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكبر جدواه لأنه تهيأ له بسليقته ونشأته وتوشُّج تركيبه عليه .

فظهر منه في إيمان القلب ، ورويَّة العقل ، وفي السياسة العامة ، وفي السياسة الخاصة ، وما تشتمل عليه من أدب السلوك وعلاقة بالناس ." (٢)

---

(١) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢٣٢.
(٢) نفسه ص ٢٣٣.

لكن العقاد يعود بعدما قرَّر ذلك إلى رأيه الأول وهو فتنة أبي بكر ببطولة وعظمة صديقه محمد ﷺ فيقول : " فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبي ، وعمر كان يعجب بالنبي محمد .

ونزيد القول إيضاحاً فنقول : إن حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته وتصدي وحيه .

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه إلى حبه والولاء له ولحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر صاحباً آمن بصاحبه الذي يطمئن إليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدواً رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جِدَّ قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب .

أو هما كما قلنا : أبو بكر أول المقتدين ، وعمر ثاني المجتهدين ، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان ." (١)

ونقول إن كلا الرجلين العظيمين : أبو بكر ، وعمر قد صدَّق نبوة رسول الله محمد ﷺ فأحبوه وأطاعوه ، ولم يعجب أبو بكر بشخص صديق فقاده هذا الإعجاب للإيمان كما قال العقاد !

إنما الفرق بين إيمان أبي بكر ، وإيمان عمر يَكْمُن في الوسيلة التي نهجها كل منهما للوصول للحق فأبو بكر كما قلنا ممن صَفَت فطرتهم

---

(٢) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢٤٩.

فرقَّت قلوبهم وزكت نفوسهم وكملت بصيرتهم وفطنتهم ، فلما بعث النبي ﷺ ودعاه للإيمان بدين الله دين الفطرة الصافية النقية سارع إلى الإيمان ولم يتردَّد فقد صادفت فطرة الدين فطرته ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] وصار أبو بكر عبداً ربانياً يرى بنور الله ومن أهل ولايته ورعايته ومحط رحمته وهذا أقصى ما يتمناه المؤمن .

أما عمر فكان رجل عقل ودليل وبرهان ، ومن كانت هذه صفته فإنه يشك في كل جديد ويمتحنه ويدرسه حتى يصدِّق أو يكذِّب فإن بلغ تصديقه درجة اليقين آمن قلبه بعدما أيقن عقله .

ولما كان العقاد على شاكلة عمر رجل عقل ودليل وبرهان فقد انحاز لعمر ، وإن لم يعمد إلى الإساءة إلى أبي بكر بل إنه ساوي بين الرجل، والحق فإن أبا بكر مُقدَّم كما بينا .

***